الخطاب السوسيونقدي ورهان القيمة الجمالية من الأدبية إلى الاجتماعية

أ.هواري بلقندوز
أستاذ ساعد مكلف بالدروس
المركز الجامعي - سعيدة

لا شك أن ما يلفت النظر في البحوث والدراسات المهتمة بمعالجة النصوص أن سوسيولوجيا الأدب منذ إسهامات هيبوليت تين وألبير ميمي وروبيرت إسكاربيت، قد أصبحت من المفاهيم العتيقة في الدراسات النقدية بالنظر إلى التعميقات المنهجية التي شهدتها ساحة البحث السوسيولوجي في هذا المجال، بحيث أدت فيه الماركسية (المادية التاريخية) -دون أدنى شك- دورا استشرافيا، وشكلت رصيدا مرجعيا للمطارحات النظرية، وبخاصة لما أضحى يعرف بالنظرية البنوية التكوينية، أو كما ينعتها ك.دوشي بالسوسيولوجيا الجدلية للأدب التي تبلورت مع أعمال الناقد الروماني ل.غولدمان.[1]

1-المرجعية النسقية للنقد السوسيولوجي:

لقد سعى ل.غولدمان في مؤلفه ***Le Dieu caché*** الصادر سنة 1955 إلى معالجة الرؤية المأسوية في فكر باسكال ومسرح راسين، كما خصص مؤلفه الموسوم ب: **من أجل سوسيولوجية للرواية** الصادر سنة **1964** لدراسة أعمال أندري مالرو الروائية من منظور البنوية التكوينية، ذلك من أجل تقصي التماثل البنوي القائم بين إيديولوجية الفئة الاجتماعية وفكر العمل الأدبي. ولتجسيد هذه الغاية وظف ل.غولدمان جهازا مفاهيميا

تجريديا يميز فيه بين رؤيا العالم، الوعي الكائن والوعي الممكن. ومن الواضح أن غولدمان قد سعى إلى حد كبير " **أن يظهر سذاجة نظرية الأدب كمرآة عاكسة للمجتمع عندما أثبت أن الحيوية التي تنطوي عليها الظواهر الاجتماعية لا تنفصل عن الحيوية التي تكمن في الأعمال الأدبية التي تمزجها بالبعد الجمالي، فتصبح إضافة إلى هذه الظواهر، ورؤية جديدة ثاقبة إلى المجتمع، وليست مجرد مرآة أو انعكاس له** ".[2]

وإذا جاز لنا التسليم بحقيقة مؤداها أن مشروع ل.غولدمان يمثل دعوة لانفتاح النسق في نموذج بنوي يوفق بين الداخل والخارج، فإنه ينبغي أن نقر بأن مشروعه قدم تصورا منهجيا ذا حمولة إيديولوجية تعيد تشييد بعض مقولات الماركسية وفي مقدمتها مقولة الانعكاس، وكأنه استشعر لدى القارئ الماركسي ضعف أنساقها الإيديولوجية فراح يسد فجواتها المنهجية بقدر أوفى من التجريد النظري. وعلى الرغم من الصرامة والانسجام اللذين انطبع بهما مشروع غولدمان في مرجعيته اللوكاتشية، إلا أنه أضحى قابلا للنزاع والمناقشة أمام مجموعة من المقاربات التي جاءت لتكمل ما وقفت دونه البنوية التكوينية من مثل سوسيولوجيا الكتابة التي تهتم بالبحث في معنى الأشكال الأدبية بوصفها صورا غير مباشرة للتأثير الاجتماعي.

وقد اهتم بارت رائد هذا التوجه في مؤلفه (**درجة الصفر للكتابة**) بفحص تأثير التطور التاريخي على إيقاعات تحولات الكتابة الأدبية، في حين جاء كتابه **S/Z** تتويجا لهذا التصور النظري إثر دراسة تحليلية نصية لخطاب الكتابة اهتدى فيها إلى الوصول إلى النص الجمع أو المتعدد الذي تمنح قراءته في كل مرة إمكانية كتابته من جديد، انطلاقا من أن النص يستخدم بطبيعته أنظمة تشفيرية تحمل في طياتها اتفاقا ضمنيا بين النص وقارئه حول

الافتراضات الإيديولوجية التي يسعى الكاتب لإثارتها وإقناع القارئ بها. وهذه الأنظمة التشفيرية تمثل في طابعها الملتوي جزءا معتبرا من الإيديولوجيا البورجوازية السائدة.

ضمن هذا الإطار يرى بارث أن سوسيولوجيا الكتابة هي المظهر الشكلي أو البلاغي للنصوص الأدبية. [3] إلا أن هذا التصور ظل يوجه بؤرة القراءة نحو شكل الكتابة الإبداعية، أو بالأحرى، ظل المعطى الاجتماعي للنصوص الأدبية في رحاب هذا التصور محكوما بالشروط الجمالية للمادة الإنزياحية الأدبية.

2-السوسيونقد، المنطلقات النظرية والحدود الإجرائية:

2-1- الأسس النظرية:

لا مندوحة أن يكون التطور الحاصل في مجال التنظير الأدبي قد أسهم في إعادة تشكيل مفهوم الأدب، لا سيما ما تعلق بالمقاربات السيميائية بمختلف اتجاهاتها، بالإضافة إلى التعميقات المنهجية التي عرفتها المناهج السوسيولوجية من مثل سوسيولوجيا الثقافة، وسوسيولوجيا التلقي، وسوسيولوجيا القراءة، وسوسيولوجيا المعرفة. ومن ثم استوجب على الناقد في أدبيات المنهج السوسيونقدي، أن يتجاوز مخططه المنهجي الضيق والخاص بالبحث السوسيولوجي، ويسعى لتكييف خطابه العلمي مع الممارسات الإبداعية ذات الخصوصية المتمثلة في الإنتاج النصاني. ومن ههنا تطرح حسب ب.تسيما **P.Zima** إشكالية العلاقة بين السوسيولوجيا والسيميائيات، على نحو يغدو بموجبه حقل سوسيولوجيا الأدب منهجا على تخوم سوسيولوجيا جدلية ومادية تكون ألصق بالنظرية النقدية من جهة، وعلى تخوم السيميائية النقدية التي أضحت حقل اشتغال مدرسة تارتو **Tartu** بإستونيا،

والسيميائيين الفرنسيين والإيطاليين نحو: ج.غريماس، ج.كريستيفا، إمبرتوإيكو...وغيرهم كثر. (4)

وفي معرض حديث ب.تسيما عن مشروع الناقد السوسيولوجي نلفي تمييزا صريحا بين طريقتين متباينتين هما:

-الاهتمام بفحص العناصر الخارجية للنص الأدبي من مثل: موقف المؤلف داخل المجتمع، سوق الكتاب، جمهور حقبة ما، دور النشر..إلخ.

-مراعاة تحليل المجتمع وتحولاته التاريخية (**الاجتماعية والاقتصادية**) داخل النص الأدبي، وذلك إثر توظيف الأداة السيميائية للكشف عن المعطى الاجتماعي داخل النص. (5)

ونقدر ههنا أنه من الضروري الإشارة إلى أن حقيقة تموقع المعطى الاجتماعي في الخطاب الأدبي، ترتبط بشكل مباشر مع أعمال الناقد الروسي م.باختين، ولاسيما مع نظريته الحوارية التي تؤكد على اجتماعية وإيديولوجية أي خطاب بشكل موضوعي ومحسوس، خلافا لمعيارية النزعة الموضوعية المجردة (**اللسانيات البنوية**)، والنزعة الذاتية الفردية (**الأسلوبيات**). ومن ثمة جاء النقد الحواري حصيلة لجملة من الانتقادات التي استهدف بها باختين هتين النزعين في مقاربتهما للخطاب.

2-2- الممارسة والإجراء:

لا شك أن إسهامات **ب.تسيما** وزملائه **ج.ديبوا وك.دوشي ور.فايول** تنخرط بصفة رسمية ضمن إطار النقد السوسيولوجي، ذلكم التوجه الذي يعد أكثر صرامة من جهة اهتمامه بالنص، والذي سرعان ما طفق يتكرس في مقاربة النصوص الأدبية منذ صدور المؤلف الجماعي الذي أشرف على نشره ك.دوشي سنة **1979** تحت عنوان السوسيونقد.

ومن اللافت للنظر أن السوسيونقد يتجه نحو النص إثر قراءة محايثة توفيقية بين النسق والسياق مع شيء من التمركز حول قطب السياق، وهو إذ ينفتح على ما أنجزه النقد الشكلاني في مجال جمالية النسق الفني للنصوص الأدبية، يسعى لتقديم استرتيجية تقوم على استعادة المحتوى الاجتماعي لنص المدرسة الشكلانية الذي طالما غيب من طرح هذه المدرسة، ومن ثمة إمكانية استبدال مفهوم الأدبية بمفهوم الاجتماعية.

ضمن هذا الإطار أضحى رهان السوسيونقد يتمحور حول مكون النص الاجتماعي، أي علاقته بالعالم. ولا جرم أن يكون من وراء ذلك كله التأكيد على اجتماعية وإيديولوجية الممارسات الإبداعية في مقابل أدبيتها وجماليتها الشكلية.

ومن هنا يؤكد ك.**دوشي** على أن الخصوصية الجمالية هي مكمن البعد القيمي للنصوص، والذي من خلاله يتجشم الناقد السوسيولوجي عناء قراءة الأعمال الأدبية في العالم الذي نسميه اجتماعيتها. وعندئذ يتحدد مفهوم الاجتماعية لدى ك.دوشي في المعادلة التالية:

الاجتماعية = شروط الإنتاج الأدبي + شروط القراءة.

وتقوم استراتيجية القراءة السوسيونقدية على شرط توفر العناصر التالية:

- **الفاعـــل:** أي فاعل الكتابة الأدبية، وهو الفاعل النصي= المجتمع + النص
- **الإيديولوجيا:** وهي شرط الخطاب وهاجس الفاعل.
- **المؤسسات:** أو ما يعرف بالوسائط، من مثل الوسائط التعليمية، التربوية، السياسية. (6)

ضمن هذا المنظور، يقتضي المشروع السوسيونقدي حسب ك.دوشي إمكانية إعادة توجيه التقصي السوسيوتاريخي للخارج نحو الداخل، أي التنظيم الداخلي للنصوص من حيث أنساق اشتغالها، وشبكات المعنى، وتواترها، وتزاحم خطابات مختلفة ضمنها. ومن ثم يتعين على الناقد السوسيولوجي خلال تجربته القرائية أن يسعى لاستقصاء الإيحاءات والمعاني الكامنة في النص من خلال مساءلة المضمر والافتراضات واللامعقول واللامفكر فيه والصمت. وهو إذ يعمد إلى ذلك، يساهم في تشكيل فرضية اللاوعي الاجتماعي للنص، وإقحامه ضمن إشكالية الخيالي. (7)

وعلى غرار ذلك كله، لا يمكن إغفال جهود **ج.ديبوا** الذي راح يهتم بفحص ومدارسة النظام الاجتماعي داخل النص الأدبي من وجهة نظر تاريخية، مشكلا لما يمكن تسميته حسب **ديبوا** نفسه: **(مجتمع النص)** وهو عالم متخيل، أو مجتمع وهمي ثابت، أو بالأحرى لوحة اجتماعية في كنه النص. ومن ثمة يرى **ديبوا** أنه لا يوجد نص خارج حيز اجتماعي ينتجه.(8) ونحسب ههنا، أن هذا الباحث قد استلهم بعض تصورات النظرية الحوارية الباختينية، أو في صورتها الأكثر تعميقا مع ج.كريستيفا في مفهوم التناص. وفي هذا السياق يميز ر.فايول بين مفهومين اثنين هما: النظام الاجتماعي داخل النص، والنظام الاجتماعي للنص، على أن تكون مهمة الناقد السوسيولوجي ساعية لفحص المقوم الأول دون الثاني، انطلاقا من تفكيك الشفرات الإيديولوجية للنصوص الأدبية . (9)

ومن الملاحظ أن ما يميز إسهامات ج.ديبوا عن جهود زملائه من أنصار الاتجاه السوسيونقدي هو إضفاؤه للصبغة التاريخية على التفسير الاجتماعي للمادة الجمالية في النصوص الأدبية انطلاقا من مفهوم خاص

للعالم، وطرح متميز لعلاقة الفن بالإنسان والتاريخ، يمكن تلخيصهما على النحو التالي:

-الأعمال الإنسانية محددة بتاريخ يتميز بأنه جماعي.

-الآثار الفنية على الرغم من تجسيدها الفردي هي منتجات هذا التاريخ.

-هذه المنتجات ترتبط بممارسات إنسانية لها خصوصيتها، لكنها لا تختلف كثيرا عن النشاطات المادية في الواقع. (10)

أما جهود ب.تسيما الساعية إلى بناء سوسيولوجيا النص في إطار بلورة رؤية جديدة تتجاوز سوسيولوجيا المضامين، حاولت هي الأخرى إبراز البعد الاجتماعي للنصوص في المحور الموضوعاتي. ذلك من خلال الممارسات الاختصارية التي تحول النص إلى مجرد نظام مفاهيمي (**بنية من المداليل**) أو خطاب خاص حول الواقعة الاجتماعية، قوامه سلطة المفهوم وفعاليته في الخطاب. ومما لا شك فيه أن ب.تسيما يعتمد في رؤيته هذه على الأطروحة الشكلانية بوصفها قيمة إجرائية تجريبية تعتمد المحايثة اللسانية (**التفسير اللساني النسقي**).

ضمن هذا المنظور، يمكن لسوسيولوجيا النص أن تندرج ضمن البحوث الحالية التي تهتم بمدارسة الإيديولوجيا بوصفها ظاهرة لسانية أو خطابية عبر جمالية **Transes thétique** ضمن تأليف مفاهيمي ومنهجي بين المنظورين معا، السوسيونقدي وسيميائيات الخطاب.

وعلى غرار ذلك، يرى ب.تسيما أن وصف وتفسير ونقد البنى الروائية في إطار المقاربة السوسيونصية يتجه صوب التركيز على ميكانيزمات النص في مستواه الإيحائي ضمن فحص المخطط الدلالي والسردي. (11) وفي هذا السياق أجرى الباحث دراسة سوسيونصية حول نخبة من النصوص الروائية لكل من سارتر وكافكا وجيد وموزيل وموراڤيا وكامو، تعامل

خلالها مع الظواهر السوسيولوجية المطروحة في هذه الأعمال كما لو أنها إشكالات لسانية وخطابية، أو بالأحرى، ما نعته **بالوضعية السوسيولسانية**، مثل الغموض والتناقض والحياد والتمرد، مستكنها دلالتها ووظائفها اللسانية في الخطاب.انطلاقا من التسليم بالفرضية الباختينية التي تقضي باستحالة حياد أي خطاب كائنا ما كان، وبالتالي استحالة انسلاخه عن الإيديولوجيا التي تشكل إحدى مقومات محيطه الفكري الذي أنتجه، على نحو يكون فيه الملفوظ في الخطاب وحدة لسانية مفعمة بالإيديولوجيا. (12)

وقد يكون من المفيد الإشارة إلى أن المعطى الجمالي (**القيمة اللسانية**) في نظرية ب.تسيما من شأنه أن يخفف من غلواء آلية التفسير الاجتماعي عند زملائه من أنصار الاتجاه السوسيونقدي، من جهة تضمين المعطى الاجتماعي في مستوى القيمة الإيحائية للنصوص الأدبية.

وهكذا يصير- في عرف المنهج السوسيونقدي - كل متخيل سردي كونا مختزلا تملأه الكائنات الحية والأشياء والأماكن والمقاطع الزمنية، وكل قصيدة أسلوبا لصنع عالم انطلاقا من القيمة الرمزية للكلمات والأشياء. وبهذا يستطيع التفسير السوسيونقدي -إثر تصعيد الرؤية الاجتماعية للمكون الجمالي في النصوص الإبداعية- أن يتجاوز نظرية الانعكاس الماركسية، وكذا مقولة الإيهام الواقعي، كما لو كان بوسعه أن يزودنا برؤية موضوعية إزاء الأعمال الأدبية من حيث نزوعها الاجتماعي والإيديولوجي، لا سيما تلك التي تتميز بالتفرد والذاتية كما يبدو لدى الأدباء الرومانسيين.

الإحـــــــــــــالات

1-Cf. Claude Duchet, Sociocritique, Nathan, Paris 1979 p5.

2- نبيل راغب، موسوعة النظريات الأدبية، مكتبة لبنان ناشرون، دار نوبال للطباعة القاهرة 2003 ص327.

3- ينظر الطاهر روابنية،سوسيولوجيا الأدب وسوسيولوجيا الكتابة،مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، ع2001/15 ص8.

4- Cf. P.V.Zima, Littérature et société, pour une sociologie de l'écriture, in théorie de la littérature, ouvrage coll présenté par A.Kibédivarga, Picard,Paris, 1981 p283.

5- Ibid, p 282.

6- Cf. C.Duchet op.cit p4.

7- Cf. Ibid pp 4-5.

8- Cf. J.Dubois, Sociologie de la littérature, in méthodes du texte, ouvrage coll dérigé par Mauria Delacrois et F.Hallyn, Duculot, Paris 1987, p 288.

9- Cf. Roger Fayolle, Quelle sociologie pour quelle littérature ? in sociocritique, op. Cit p 215.

10- Cf. J.Dubois, op.cit p 289.

11- Cf. P.V.Zima, L'indifférence romanesque, Sartre,Moravia, Camus ; le sycomore, Paris 1982, p 12, cit in J.Tynianov, de l'évolution littéraire, p 131.

12- Cf. Mikhail Bakhtine, Esthétique et théorie du roman, tr.D. Olivier, ed. Galimard, Paris 1978, p

وينظر في هذا المقام، هواري بلقندوز، الخطاب الغرائبي عند ألبير كامو، مجلة حوليات التراث، جامعة مستغانم، ج2/ع6/ 2006 .78 ص 26.